البحث الثانى

مجال الظواهر فى الأديان

كلما دقت الآلة ، وتعقدت ، دلت على مهارة الصانع وقدرته على الإبداع ، فإذا انفرد بصنعها ، فلم يشاركه أحد فى تركيبها وتصنيعها ، كانت معرفة أسرارها وتفسير ألغازها وقْفاً عليه.

ذلك مانلاحظه فيما تخرجه لنا المصانع كل يوم ، وهو حقير بالنسبة لهذا العالم الواسع الذى نعيش فيه؛ فإذا حاول علماء الفلك تفسير ظواهر الكون اعتماداً على ملاحظات أو تجارب ، اكتسبت نتائج بحثهم الصفة العلمية ، ولكنها لن تكون الحقيقة التى لاتُنْقَض ؛ لأنها لم تصدر من صانع هذا الكون (يستثنى من ذلك الظواهر البدهية التى أصبحت قضايا مسلماً بها ، لتكرار مشاهدتها) ، كذلك إذا فسر رجال الدين، والمشتغلون بالبحث فى عقائد البشر نصوص الدين الغامضة ، والشعائر المبهمة لدى المتدينين ، أو العادات والتقاليد التى تتحكم فيها العاطفة الدينية فى المجتمع ، فلا ينبغى أن يرقى تفسيرهم إلى مرتبة النص ؛ فهم غير معصومين من الخطأ ، ولذلك نجد اختلافا فى تفسير الظواهر الدينية بين العلماء الذين عاشوا فى عصر واحد ، وكذلك بينهم وبين من لم يكن معاصراً لهم . وعليه ، فما يعرض فى هذا الباب من أبحاث لايخرج عن كونه آراء وتفسيرات للمشتغلين بعلم الأديان بصرف النظر عن كون النتائج التى توصلوا إليها متفقة مع هذه العقيدة أو تلك .

الألوهية ، المقدس ، القوة الغيبية

كلمات تعبر عما لايدركه الإنسان بحواسه ، غير أنه يصبح عن طريق مجموعة من الظواهر كما لو كان مرئيًا ومسموعاً ؛ إذ يتصوره الإنسان فى الذهن بواسطة التفكير العميق ، ويدركه من خلال تجاربه الروحية[33]

---

[33] حث القرآن الكريم على التفكير فى ملكوت الله لأنه وسيلة للوصول إلى معرفة الخالق عز وجل :

(أ) "أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء " [الأعراف : ١٥٨]

(ب) " الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها

ويتكون عالم الظواهر فى الدين – الذى يوجه منطقة التفكير فى الإنسان إلى التأمل فى آثار قدرة صاحب القوة الغيبية ، ويدفع المتدين إلى الاستغراق فى العبادات ، فتصفو نفسه من الشوائب المادية المحيطة به ، وتربطه بعالم الروح – من ثلاث حلقات :

الظواهر ، التصور ، التجربة النفسية

يتصل بعضها ببعض ، وترتبط بالأدلة المادية التى توقظ الحاسة الدينية عند الإنسان . غير أنه يمكن – عند بعض الأفراد – أن تستقل حلقة من هذه الحلقات فى إحياء الشعور الدينى ؛ إذ لايتوقف عمق الغريزة الدينية وقوتها على مدى الاعتقاد فى الظواهر الدينية فى المجتمع ، فقد يرفض أحد مظهراً من المظاهر التى اكتسبت الصفة الدينية فى المجتمع ، ولا يؤثر هذا على قوة تدينه ، وصفاء عقيدته ، كذلك لاتدل إقامة الشعائر الدينية – أو الاشتراك مع المجتمع فى ممارسة العبادات – فى بعض الأحيان على صدق الإيمان فى القلب ، فقد يتصرف شخصان بطريقة واحدة تماماً ، ومع ذلك يعتبر أحدهما متديناً والآخر غير متدين ؛ إذ أن الذى ينبع سلوكه من حب الله أو الخوف منه فإنه يكون متديناً ، وأما الذى ينبع سلوكه من حب الناس أو خشيتهم ، فإنه يعتبر شخصاً أخلاقياً أو لا أخلاقياً ، تبعاً لكون سلوكه متفقاً مع الخير العام ، أو متعارضاً معه . ومن هنا كان الإيمان والممارسة ، أو بالتعبير الدينى ، العقيدة والشريعة ، على درجة واحدة من الأهمية بالنسبة للدين ؛ إذ لايمكن له أن يقوم بدونهما معاً ، ولكن ليس من الضرورى أن تتخذ

زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . [الرعد : ٢-٤]

(ج) " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب " [ق : ٦-٨]

(د) " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت." [الغاشية : ١٧-٢٠]

كما بين أن استقرار الإيمان فى القلب علامة على التصديق بالله سبحانه وتعالى الذى يدفع العبد إلى التوجه إلى بارئه فى نجواه ، فيسمو فوق طبيعته المادية ، ويزداد إيمانه :

(هـ) " فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ." [البقرة : ٢٦]

(و) " وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ." [الأنفال : ٢]

(ى) " ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ." [الحج : ٣٢]

[33]) فريزر :٢١٨

الممارسات الدينية دائماً شكل الشعائر ، أى أنه ليس من الضرورى أن تتألف من تقديم القرابين وتلاوة الصلوات وما إلى ذلك من الطقوس الظاهرة الملموسة . فالهدف من الشعائر هو إرضاء الرب ، والرب نفسه كائن يجد الغبطة فى الإحسان والرحمة والتطهر أكبر مما يجدها فى إراقة دم الأضحيات وترتيل الترانيم ، وحرق البخور . وعلى ذلك فإن العباد لايستجلبون رضا الرب بالتذلل والاسترحام أو بالتسبيح بحمده وتقديم الهدايا والقرابين الغالية الثمينة فى معابده ، بقدر مايرضونه عن طريق التطهر والرحمة والإحسان للآخرين ؛ لأنهم بذلك إنما يحاكون كمال الطبيعة الإلهية بقدر مايسمح لهم ضعفهم البشرى.[٣٤] ولقد حثت الأديان السماوية على هذا الجانب الأخلاقى ، وقدمته فى بعض المواضع على الجانب المظهرى ؛ فقد جاء فى سفر أرميا الوصية باليتيم والأرملة قبل النهى عن الإشراك بالله: " إِنْ لَمْ تَظْلِمُوا الْغَرِيبَ وَالْيَتِيمَ وَالْأَرْمَلَةَ ولم تَسْفِكُوا دَماً زَكِياً فى هَذَا الْمَوضِعِ ولم تَسِيرُوا وراء آلهة أخرى لِأَذائكم ، فإنى أُسْكِنُكُم فى هذا الْمَوضِعِ فى الأرض التى أَعْطَيْتُ لآبائكم من الأزل وإلى الأبد ". [سفر أرميا ٧ : ٦ - ٧]

كذلك قدم القرآن الكريم الحث على الإنفاق فى سبيل الله على الوصية بإقامة الصلاة ، يقول الله تعالى : "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ". [البقرة : ١٧٧]

تبدو مجالات الدين الثلاثة (الظواهر ، التصور ، التجربة النفسية) كما لو كانت وحدة فى قلب المؤمن ، وليست هذه طبيعة الأديان الكبرى فقط ، بل يشترك معها أيضاً جميع أديان البشرية على تفاوت درجاتها ؛ إذ تشتمل جميعها (السماوى منها وغير السماوى ، الوثنى الخالص ، وما دخلته وثنية مقنعة ، البدائى والمتطور) على خوارق العادات ، وهى ظاهرة حقيقية فى الأديان السماوية ، يطلق عليها : **معجزة**، وهى مايظهره الله على يد نبى تصديقاً له فى دعواه .

أما مايبدو لدى الشعوب البدائية بأنه خارق للعادة ، فهو من قبيل السحر ، إلا أن علماء الأديان والمشتغلون بأبحاث الأنثروبولوجيا يربطون بينه وبين الدين ؛ فيرى "جيمس فريزر James Frazer" أن

---

[34]) فريزر : ٢١٨

الدين هو التزلف والتقرب إلى القوى العليا التى تفوق الإنسان ، والتى يعتقد أنها توجه سير الطبيعة والحياة البشرية ، وتتحكم فيهما ، ثم يستخلص من هذا التعريف ، أن الدين يتألف من عنصرين :

أحدهما نظرى : وهو الإيمان بوجود قوى أعلى وأسمى من الإنسان .

والآخر عملى : وهو محاولة استمالة هذه القوى وإرضائها . [٣٥]

فإذا كان الدين يعنى من ناحية : الاعتقاد فى وجود كائنات أسمى من البشر تتحكم فى هذا العالم وتسيطر عليه ، كما يعنى من الناحية الأخرى : محاولة استرضاء هذه الكائنات ، فإن ذلك يتضمن بغير شك الاعتراف بأن أحداث الطبيعة مرنة إلى حدما ، وقابلة للتغيير ، وأن باستطاعتنا أن نقنع أو نحث هذه الكائنات القوية التى تحكم الطبيعة على أن تغير سير الأحداث من مجراها الأصلى بما يحقق صالحنا الخاص .

وإذا كان السحر يتعامل مع الأرواح التى تتحكم فى الطبيعة – وهى قوى شخصية من النوع الذى يفترض الدين وجوده – ويملك الساحر القدرة على إخضاعها وتسخير قواها لتغيير الطبيعة كما يريد ، فقد احتل الساحر مكان الصدارة عند القبائل البدائية ؛ أصبح ملكاً ، وتولى منصب الكهانة .

قدسه أتباعه ، وتوقعوا منه أن يرسل عليهم المطر ، أو ضوء الشمس فى المواسم المناسبة ، وأن يساعدهم على نمو المحاصيل وما إلى ذلك...

ومن هنا اختلطت التعاويذ السحرية بالشعائر الدينية ، فكان الناس يمارسون الشعائر الدينية والسحرية فى وقت واحد. ظل هذا الاختلاط بين السحر والدين قائماً حتى بين الشعوب التى وصلت إلى مستوى عالٍ ورفيع من الثقافة ، فهو يظهر بوضوح وجلاء فى الهند ومصر فى الأزمان الغابرة : كما أنه لم يختلف تماماً عند الفلاحين الأوروبيين حتى وقتنا الحالى ؛ فلا زال الخلط بين الأفكار أو المزج بين الدين والسحر يظهر فى أشكال مختلفة بين الطبقات الجاهلة فى أوروبا الحديثة .

يقال : إن معظم الفلاحين فى فرنسا لايزالون يعتقدون أن القسيس يملك قوة خفية لاتقاوم ، وأنه حين يتلو بعض الصلوات المعينة بالذات – التى لايعرفها سواه والتى لايحق لغيره أن يرتلها – فإنه يستطيع فى حالة الخطر الداهم أن يبطل لفترة معينة فعل القوانين للعالم الفيزيقى ، أو حتى يقلبها تماما ، ولكن يتعين عليه

---

[35]) فريزر : ٢١٨

بعد أداء هذه الصلوات أن يطلب الغفران . فالرياح والعواصف والبرد والمطر تخضع لسلطانه وإرادته ، وكذلك النار ، بل إن ألسنة اللهب تتجمد بكلمة واحدة منه.[٣٦]

يتبين من هذا أن المبادئ السحرية ترتبط بالدين ، وتتصل به اتصالا وثيقاً ، وهى فى الوقت نفسه لاتنفصل عن ظاهرة المعجزة ؛ بمعنى أن كلا منهما يبدو تغييراً لظواهر الطبيعة .

ورغم هذا يجب أن نفرق بين الدين والسحر؛ فالسحر – بمعناه الحقيقى – شيء مكتسب ، أى قواعد يتعلمها الممارس له ، وهذه القواعد تتركز على قوانين عقلية ، أبسط مايقال عنها : " إنها درجة قبل العلم " فالواقع أنها مبادئ جوهرية وأساسية تمامًا للتفكير الإنسانى . وإذا تم تطبيقها بطريقة سليمة فإنها تؤدى إلى العلم ، بينما تطبيقها بطريقة غير سليمة "وغير مشروعة " يؤدى إلى السحر ، وهو الأخ غير الشرعى للعلم . ولذا فإن من البديهى – بل إنه قد يكون مجرد تكرار للمعانى – أن نقول : إن السحر بأشكاله المختلفة هو بالضرورة علم زائف عقيم ، لأنه لو حدث أن صدق وأثمر لخرج عن دائرة السحر

---

[36]) ترجع بعض الطقوس الدينية الرسمية فى الكنائس إلى ماكان يمارس لدى الشعوب البدائية ، فلو بحثنا عن أصل عادة الكاثوليك فى نذر الشموع المقدسة فى الكنائس ، لتبين لنا صلتها بشعائر " نيمى **Nemi** " (بحيرة صغيرة فى إيطاليا) ؛ فقد كانت النار تلعب دوراً جوهرياً فى الشعائر المتعلقة بها . ففى أثناء الاحتفال بعيدها السنوى الذى كان يقام فى الثالث عشر من أغسطس ، أى فى أشد أيام السنة حرارة ، كانت غيضتها المقدسة تضاء بعدد كبير جدًّا من المشاعل التى كان ضوؤها الأحمر القانى ينعكس فى مياه البحيرة . كما كان الناس يحتفلون بذلك اليوم فى طول إيطاليا وعرضها بإقامة الشعائر المقدسة أمام المواقد فى البيوت . وقد عثر فى حرم المعبد على بعض التماثيل البرونزية الصغيرة التى تمثل الآلهة ذاتها وهى تحمل مشعلاً فى يدها اليمنى وترفعه إلى أعلى ، كما كان النساء اللاتى تستجاب صلواتهن ودعاؤهن يتوافدن على الهيكل وقد توجت رؤوسهن بالأكاليل وهن يحملن المشاعل المضاءة وفاء بنذورهن . وقد كرس شخص مجهول مشعلاً يوقد باستمرار فى ضريح صغير فى نيمى لتأمين الإمبراطور " كلوديوس **Cloudius** " وأسرته . (الواقع أن هناك اثنين من أباطرة الرومان يحملان اسم كلوديوس ، وهما كلوديوس الأول الذى حكم ما بين عامى ٤١ ، ٥٤ بعد الميلاد ، وهو أخو الإمبراطور " تيبريوس **Tibrius** " وكان فى شبابه ماجناً مهرجاً إلى حد كبير ، ولكنه لم يلبث أن تحول إلى طاغية بعد أن تولى الحكم بعد الإمبراطور كاليجولا المشهور بتزواته وقسوته ، وقد قتل زوجته الثالثة " ميسالينا **Messalina** " لخيانتها وعلاقاتها الفاضحة ، وتزوج بعدها " أجريبينا **Agrippina** " الصغرى التى تآمرت عليه بعد أن أعلن أن ابنها سوف يتولى العرش بعده ، ثم ندم على ذلك وأراد الرجوع فى قراره. وأما كلوديوس الثانى فقد حكم روما ما بين عامى ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، وكان ينتسب إلى عائلة مغمورة فى الأصل ، ولكنه اكتسب شهرة عريضة فى الحرب ، ويبدو أنه كان أحد المتآمرين على الإمبراطور " جالينوس **Gallienus** " ولم يحكم سوى فترة قصيرة ، ولكنها امتازت بالانتصارات الحربية . ويبدو أن إشارة فريزر هنا يقصد بها كلوديوس الأول).

أما القناديل المصنوعة من الطين المحروق والتى اكتشفت فى الغيضة ، فمن المحتمل أنها كانت تخدم نفس الغرض بالنسبة للأشخاص الأقل مكانة ومنزلة . ويحتمل أن هذه الطقوس دخلت الكنيسة الكاثوليكية على النحو المشاهد الآن من تقديم الشموع ضمن الطقوس الدينية [فريزر ، ٧٤ - ٧٥].

ودخل فى دائرة العلم . ولقد اهتم الإنسان منذ أقدم العصور بالبحث عن القواعد العامة التى يستطيع أن يخضع نظام الظواهر الطبيعية لصالحه الخاص ، واستطاع خلال بحثه الطويل أن يقوم بتجميع عدد كبير من تلك القواعد التى تتفاوت فى الأهمية والقيمة . فأما القواعد الصحيحة أو الذهبية فإنها تؤلف مجموعة العلوم التطبيقية التى نسميها بالفنون ، وأما القواعد الزائفة فإنها تؤلف السحر.[37]

فالسحر ملكة يملكها بعض الأذكياء ، وتفتقر بسبب طبائعهم المحدودة إلى إضفاء ثوب الدين على مايقومون به من أعمال تبدو خارقة للعادة ، فيربطون بينها وبين من يملك تلك القوة الغيبية التى تتحكم فى قوى الطبيعة ، ألا وهو المقدس. ولما كان الإنسان البدائى يحاول إرضاء المقدس ، وصلته به أقرب عن طريق الساحر ، اختلط السحر بالدين ، إلا أنه غالبا مايكون السحر أحط درجات الدين ؛ وذلك عندما يساء استعمال العبادات الدينية ، إذ تفقد روحها ، ولاتؤدى إلى الهدف الذى فرضت من أجله ، فتتردى إلى شعوذة يمسك زمامها الدجالون ، ومن يلهثون وراء المال والجاه عن طريق إرضاء عواطف العامة الذين لايفقهون معنى العبادات وروحها.

المقدس

تحتل عناصر الطبيعة المكانة الأولى فى سلسلة ما – ومن – يقدَّس ، لأنها توقظ الإنسان المتأمل ، بعظمتها ، ودقة تنسيقها ، وإبداع عناصرها ، وبما تحمله من أسرار معجزة ، وآفاق يخر العقل البشرى أمامها ساجداً . لذا توجه الإنسان البدائى إليها بالعبادة والمناجاة ، ولم يستطع أن يفرق بين تلك الآيات الظاهرة ، وبين مبدعها وخالقها ، لم يدرك أنه صورها آية على عظمته وقدرته :

﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

[يونس : ٦]

عبد البدائى هذه الظواهر على اختلاف أشكالها وتنوع عناصرها ، واستمر فى تقديم القرابين لها لأنها مقدسة ؛ إذ هى تملك تلك القوة الغيبية التى تفوق قوى البشر ، غير أن مظاهر هذه العبادات تحولت – غالبا – إلى أشياء – وصور – تمت إلى المقدس بصلة ، أيًّا كانت نوع هذه الصلة ؛ يتضح هذا فى أماكن العبادة فى العصور القديمة ، عندما احتل الحجر المقدس فى الدين الكنعانى " Bethel " أى " بيت الله ".

---

[37]) فريزر : ٢١٦-٢١٧

وتنضم إليه – فى التقديس – الصورة عند الصخرة فى عبادة " ميتهرا Mithra " [38] الذى يعتقد أتباعه أنه مولود أمام صورة الإله وهو يضحى بثور .

كذلك استعمل لفظ الصخرة كرمز للإله فى الزبور :

" أُحِبُّكَ يَارَبُّ يَاقُوَّتِي. الرَّبُّ صَخْرَتِي وَحِصْنِي وَمُنْقِذِي . إِلَهِي صَخْرَتِي بِهِ أَحْتَمِي" [مزمور ١٨ : ١-٣] وأطلق على عيسى عليه السلام "الحجر الحى" : "قد ذقتم أن الرب صالح . الذى إذ تأتون إليه حجراً حياً مرفوضاً من الناس ولكن مختار من الله كريم" ، ثم يقول بطرس بعد ذلك فى رسالته : "لذلك يتضمن أيضاً فى الكتاب.[39] هاأنذا أضع فى صهيون حجر زاوية مختاراً كريماً والذى يؤمن به لن يخزى ". [40]

ويحتل الحجر الذى جاء وصف عيسى به مكانة لدى المسيحيين ؛ فيعلن "Franz von Assisi " [41] أنه يحبه – أى الحجر – لأن عيسى وصف به .

* * *

---

[38]) يطلق عليه فى اللغة الفارسية "Mithra " وفى الهندوسية القديمة "Mitra " وفى اليونانية "Mitras " ، وهو إله النور عند الآريين ، وواهب الخصوبة والسلام والنصر . تغلب عليه فى العقيدة الزرادشتية "أهورا مزدا Ahura Mazda " فترة من الوقت واحتل مكانه . وتقام شعائر عبادته – التى تأخذ الطابع السحرى الغامض – فى كهف صخرى تحت الأرض ، حيث رسم الإله و هو يذبح أول ثور على وجه الأرض قرباناً. تجاوزت عبادته فارس إلى آسيا الصغرى واليونان ، ثم انتشرت بواسطة جنود الرومان ، فوصلت روما وألمانيا وبريطانيا ، وبقى فى تلك البلاد كثير من آثار تلك الكهوف التى كانت تقام فيها صلوات أتباع ميتهرا وعلى سبيل المثال فى ألمانيا ، وبالتحديد فى "Heldesheim " و "Diesburg " القريبتين من فرانكفورت الواقعة على نهر " Main " ويرجع فضل القضاء عليها إلى المسيحية ؛ إذ تعقبها المسيحيون – بدون هوادة – فى كل مكان حتى قضوا عليها قضاء تاماً ..

[39]) راجع : سفر أشعياء ٢٨ : ١٦

[40]) رسالة بطرس الرسول الأولى ٢ : ٦

[41]) اسمه : "Franz van Assisi " ، ولكنه اشتهر بـ "Franceskan " ، ولد فى مدينة "Assisa " فى وسط إيطاليا عام ١١٨١م أو ٨٢م على اختلاف فى ذلك . وهب نفسه كلية لخدمة المسيح وأتباعه ، ولذا كان يطوف البلاد منذ عام ١٢٠٨م داعياً الناس إلى التكفير عن السيئات والتطهر من أدران المعاصى ، فانضم إليه أتباع ومريدون ، وكان يرسلهم مثنى – على طريقة حوارى عيسى – ليرشدوا الناس ، ويعالجوا المرضى . ثم أسس فى كل إيطاليا – منذ عام ١٢١٩م فى كل البلاد الأوروبية الأخرى – جماعة الأخوة التى يطلق عليها الفرنسسكان ، نسبة إلى اسمه الذى اشتهر به . وتوفى فى ١٢٢٦/١٠/٣م.

قدس الناس الجبل ، لأنهم اعتبروه مركز ثقل الأرض ، ولذا فهو من الأماكن المفضلة عند الناسك الهندى [42] ، ولدى المسيح [43] ، وكذلك عند مؤسسى جماعة الفرنسيسكان. واعتقد اليونانيون فى العصور القديمة أن جبل أوليمب مقدس [44] ، لأنه مسكن الإله زيوس .

كثر استعمال لفظ الجبل فى النصوص الدينية ، فوصف فى العهد القديم بأنه قُدْسُ الله [45] ، وذكرت الأساطير الدينية أن العالم عبارة عن جبل [46] ، ويصف الصوفيون الله بأنه جبل ، وسبيل الوصول إليه – أى الله – محاولة الصعود إلى ذلك الجبل المقدس بسلوك طريق صعب وعر. وتحتل الأرض مركزاً خاصاً فى سلسلة الأشياء المقدسة ؛ فيطلق عليها "الأرض الأم" ، لأنها تحتضن كل الأحياء ، من نبات وحيوان وإنسان .

قدس الإنسان أنهاراً وينابيع مياه ، لأنها تهب الحياة والخصوبة ؛ فيعتقد الهندوس أن مياه نهر الجانج تمحى الذنوب ، لذا يقصده الحجاج من كل صوب ، كما يقذفون التراب المتخلف من الميت بعد حرقه فى مياهه. وبجانب مياه الأنهار والينابيع الطبيعية يأخذ الذى يباركه الكاهن مكانه بين الأشياء المقدسة ؛ وذلك كما فى بعض طقوس الكنيسة الكاثوليكية . [47] فجوهر الماء الذى له خاصية التحكم والتأثير فى الطبيعة – سواء كان ذلك طبيعياً ، أو مكتسباً عن طريق إجراء طقوس دينية معينة – يكتسب صفة الألوهية ، فيطلق عليه : ماء مقدس ، أو ماء إلهى . ويصبح الماء – أو الينابيع والآبار التى تحتل هذه المكانة – فى النهاية صورة محبوبة لدى الإنسان الذى يعتقد أنها فيض من الله ، أو ممن يملك القوى الغيبية التى تسيطر على جميع ما فى الكون كما يعتقد البدائى .

---

[42]) قارن : Von Glasenapp : Dhe nichtchristlichen Religionen S. 161

[43]) جاء تقديس الجبل فى مواضع عدة فى الكتاب المقدس ، انظر : أرميا ٣١ : ٢٣ ، وزكريا ٧ : ٨ ، ورسالة بطرس الرسول الثانية ٢ : ٦

[44]) جبل يقع على حدود سلانيك الشمالية ، ويبلغ ارتفاعه ٢٩٨٥م ، وإليه تنسب دورة الألعاب الرياضية العالمية (أوليمبياد) التى تقام فى عصرنا الحالى فى إحدى العواصم العالمية ، التى تحددها اللجنة المختصة ، إحياءً لذكرى وثنية قديمة ؛ فقد كان اليونانيون يقيمونها كل أربع سنوات ، استمرت منْ عام ٧٧٦ ق م حتى ٣٩٤م تكريماً للإله زيوس .

[45]) إقرأ على سبيل المثال : المزامير ٢ : ٦ ، ٣ : ٤ ، ١٥ : ١ ، وسفر أشعياء ٥٦ : ٧ ، ٥٧ : ٣ ، وسفر دانيال ٩ : ١٦ ، وسفر يوئيل ٢ : ١

[46]) قارن : Nölle S. 61

[47]) يبارك القسيس فى الكنيسة الكاثوليكية كمية من الماء ، ثم يضعها فى مدخل الكنيسة ، فيغمس المصلون أصابعهم فيه عند دخولهم ، ثم يمسحون بها وجوههم . ومن المياه المقدسة فى الكنيسة الماء الذى يستخدم فى طقوس التعميد .

قدس الإنسان النار فاستعملها كوسيلة سحرية لتأمين سريان الشمس ، أو أسلوب لطرد الشياطين . كذلك أشعلها فى موقد وضعه فى وسط منزله ، أو فى ساحة الحى دلالة على دوام بقاء القبيلة أو على ازدهار الشعب.

انتشر تقديس النار بين الشعوب البدائية بنوع خاص ، غير أن دوافع هذا التقديس كانت مختلفة ؛ فبعضهم يراها عنصراً مفيداً فيقدسها ، والبعض الآخر يراها قوة مدمرة ، فيخاف منها ، فيتقيها بواسطة تبجيلها واحترامها. وظل الشعور بطبيعتها السحرية ، التى تفوق قدرة الإنسان ، منتشراً بين أتباع الأديان المتطورة ، فهى فى اعتقادهم – أو طبقاً لتقاليدهم المنتشرة بينهم – تدرأ الأذى ، وتطهر وتنقى الأحياء من كل مايسوءهم ، وتهبهم القوة والصحة ، ويجلب دخانها الخير والبركة ، ويحتوى التراب المتخلف منها على قوة سحرية خارقة ، لذا كانت تمثل عنصراً رئيسياً ، بل ركناً هاماً فى مراسيم العبادة فى الهند وإيران إبان العصور القديمة ، فهى تشتعل بواسطة شمعة –أو مصباح – على القبور ، وأمام صور وتماثيل الآلهة ، وفى دور العبادة. ونشاهدها اليوم أيضاً فى الكنائس والصوامع والبيع ، وكذلك فى أضرحة الأولياء .

ارتفعت النار إلى مقام الألوهية ، فسمى بها الإله : "لأن إلهنا نار آكلة . " [48] أو هى الإله نفسه ، فقد ذهب الرواقيون [49] إلى أن النار هى المبدأ الفاعل (أى الله) ، والمادة هى المبدأ المنفعل (أى العالم) ، كذلك استعملت كرمز لروح الله فى لغة الكتاب المقدس [50] وفى تعبيرات المتدينين فى عصور المسيحية الأولى ، ولدى المتصوفة من المسيحيين ، فقد وصفوا بداية الروح الإلهية بأنها شرارة وضاءة .

نظر الإنسان إلى قوى الطبيعة (الشمس ، القمر ، النجوم ، البرق ، الرعد ، الرياح) على أنها مظاهر وأشكالاً للإله ، أو هى آلهة مستقلة ، فتبوأت الشمس المقام الأول فى طقوس المتدينين ، وتلاها القمر ، وأحياناً نجدهما متلازمين فى إقامة الشعائر – وفيما تحكيه الأساطير – تلازمهما فى تركيب الكون ، غير أن الأساطير التى تدور حول القمر أكثر خيالاً من أساطير الشمس ، لأن مدار القمر وهيئته تبعث الخيال، وتوقظ شاعرية الإنسان أكثر من الشمس ، رغم هذا فعبادة الشمس والطقوس التى تقام لها أوسع

---

[48]) الرسالة إلى العبرانيين ١٢ : ٢٩

[49]) أتباع المدرسة التى أسسها زينون (٣٣٦–٢٦٤ق م) ، فقد كان يجتمع بتلاميذه فى رواق ذى أعمدة مزخرفة فى أثينا ، وإليه نسب اسم هذه المدرسة الفلسفية .

[50]) قارن : سفر الخروج ٢٤ : ١٧ ، وزكريا ٢ : ٥ ، وملاخى ٣ : ٢ .

انتشاراً وأهم من الشعائر الدينية التى تقام للقمر ، لأن "قوة وعظمة" الشمس أوضح إدراكاً ، سواء من ناحية التصور العقلى ، أو من ناحية الشعور الحسى .

برزت مشكلة الحياة والموت ، ومسألة النمو وتعلقها بالحضارة ، والنزاع بين السلطة والقانون ، والاعتقاد فى القضاء والقدر ، والتقويم الحسابى فى فكر الإنسان متأثرة إلى حدما بهذين النجمين الكبيرين ، الشمس الساطعة ذات الإشعاع الدافئ والمحرق أيضاً ، والقمر ذى الإشعاع الخافت ، ولكنه مثير للمشاعر ، فيذهب "Rühle " إلى أن كلا النجمين يلتقيان فى خلق الخيال الخصب الخلاق ، وإيقاظ العاطفة الدينية عند الإنسان ، ولهذا ظهرت أساطير عنهما فى كل مكان [٥١] ، واكتسبت طقوسهما شهرة ، فتعتقد قبيلة "Ultoto " – وهى من قبائل الهنود الحمر – أن القمر مركز العالم .

واهتم رجال الدين فى هليوبوليس (عين شمس) اهتماماً كبيراً بترتيب آلهة الشمس المتعددة ، وضعوا على رأسهم إله الشمس الأكبر "رع" .

وقدس البابليون الشمس والقمر ضمن مجموعة الآلهة التى كانوا يقدمون لها طقوس الولاء والتبجيل، فكان منها: "schamasch " إله الشمس، و "Sin " إله القمر، و "Ischtar " إلهة الحب والحرب، و"Venus" إلهة الحب والجمال.[٥٢] ، ويعتقد اليابانيون أن الإمبراطور ينحدر من إلهة الشمس "Amaterasu" [٥٣]

لم تكن عبادة الشمس والقمر مقصورة على الشعوب البدائية التى لم يرسل فيهم نبى – حسب الرأى السائد – فحسب ، بل امتدت إلى الشعب اليهودى مع كثرة الأنبياء التى أرسلت إليهم ، فيحدثنا التاريخ أنهم عبدوا الأصنام ، وأشعلو النار للشمس والقمر [٥٤] ، وعلى الرغم أن الملك يوشيا أبطل ما أدخله أبوه يهوذا من هذه الوثنية ، فقد تركت آثارها فى الفكر اليهودى ، وبرزت هذه الآثار فى النصوص المقدسة

---

[51]) **Anwader S. 506**

[52]) **Nölle S. 222, 364, 375 und 410**

[53]) **"Amaterasu "** (معناه فى اللغة اليابانية : الجلال النازل من السماء) : إلهة الشمس ، رسمت على علم الدولة اليابانية ، لأن الشعب اليابانى يعتقد أنها أرسلت حفيدها **"Niningi "** إلى الأرض ليحكمها ، وأن حفيده **"Jimmi "** (القرن السابع قبل الميلاد) كان أول قيصر للعائلة الملكية المقدسة التى لازالت تجلس على عرش اليابان حتى اليوم .

[54]) قارن : الملوك الثانى ٢٣ : ٥

عندهم ؛ إذ وصف الله بأنه شمس : " اخْتَرْتُ الْوُقُوفَ عَلَى الْعَتَبَةِ فِي بَيْت إِلَهِي عَلَى السَّكَنِ فِي خِيَامِ الْأَشْرَارِ. لِأَنَّ الرَّبَّ الله شَمْسٌ ." [55]

ومن هذه الآثار الوثنية فى هذا الصدد رسم الهلال على أعلام بعض الدول التى تؤمن بوحدانية الله ، فهى ظاهرة تنحدر أصلا من عادة تقديس القمر فى العصور القديمة .

* * *

ارتبط تقديس النجوم بالآلهة ارتباطاً وثيقاً لدرجة أن رسم – وكتابة – النجم عند البابليين ، وعند القبائل الجرمانية كان هو رسم الآلهة ، وحاول الفلكيون البابليون حل رموز نجوم السماء بأسلوب ميتافيزيقى ، وربط مدارها بما يصيب الإنسان من خير وشر . كذلك أصبح الاعتقاد فى النجوم عند اليونان والجرمان ديناً يحدد قدر الإنسان ، ويرسم معالم المستقبل ، ويكشف عن الغيب . امتد أثر هذه العقيدة إلى المسيحية ، فاعترف الكتاب المقدس بأن نجماً ظهر فى السماء ينبئ بمولد المسيح : "وَلَمَّا وُلِد يَسُوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود . فإننا رأينا نجمه فى المشرق ".[56]

وتظهر معالمها فى مناجاة أهل التقوى من المسيحيين ، فيصفوا المسيح فى مناجاتهم بأنه نجم الفجر ، ومريم بأنها نجم البحر .[57]

كانت السماء منبع الظواهر المختلفة التى قدسها الإنسان ؛ فتقديسها أو النظر إليها بالاحترام والتبجيل – وكذلك تقديس مايظهر منها من رعد وبرق [58] – ركن أساسى فى كثير من الأديان البدائية ، وعلى الأخص فى أديان الشعوب الآرية القديمة .

* * *

---

[55]) مزمور ٨٤ : ١٠ – ١١

[56]) متى ٢ : ١ – ٢

[57]) Heiler S. 18

[58]) Von Glasenapp : Die nichtchristlichen Religionen S. 121